

نظرية التحول في الخطاب القرآني *The Theory of Transformation in the Quranic Discourse*

Dr.Fadhil Midib Al-Ahbabi

د.فاضل مدب الاحبابي^(١)

ملخص البحث

ان من المستكره ان لا يتلائم كلام البشر العاديين, ولا يتربط في معاني كلماته, ولا شك في ان القرآن الكريم هو كلام الله المعجز في نظمته وتأليفه وتربط كلماته ووحدة موضوعه.

ومن الغريب ان يلحظ المطلع - توها - عدم التربط بين كلمات الآية الواحدة في موضوعها, فأول الآية يتحدث عم موضوع, واوسطها او في آخرها يتحدث عن موضوع آخر, الامر الذي يسبب ارباكا للوهلة الاولى في فهم المتلقي, ويصعب عليه ادراك سبب ذلك, فكان لابد للدارسين والمتخصصين في الدراسات القرآنية ان يبينوا الاسباب التي تزيل الاستغراب من المطلع اللبيب ؛ لان الهدف من الخطاب القرآني وغيره هو لإفهام من هو متهيء للفهم.

وهو الامر الذي شجعني على اختيار هذا البحث والموسوم بـ(نظرية التحول في الخطاب القرآني) في محاولة لإيجاد الاسباب التي دعت الى هذا التحول, وما مدى تأثيره في المعنى المراد.

والجدير بالذكر ان هذه الدراسة لا تعني تفسيراً جديداً أتيت به - معاذ الله - فذلك شرف لم انله ولا ادعيه لنفسي الامارة بالسوء, وانما هي وجهة نظر في بيان ما غفل عنه جميع المفسرين - على حد اطلاعي - ومحاولة لرفد المكتبة العلمية بالمعرفة في دراسة جديدة في موضوعها, اذ لم يسبق ان كتب احد من الباحثين في مثل هذا الموضوع.

the Summary Search

That of Almstl not suit the words of ordinary mortals, nor Aterbt in the meanings of words, there is no doubt that the Koran is the word of God

١ - جامعة كربلاء- كلية العلوم الاسلامية.

in miraculous organized and authored and linking words and the unity theme .

It is curious to notice familiar - Tohma - Non Mooring between a single verse in the theme words, the first verse speaks uncle the subject, and the middle one, or at most recently talking about another topic, which would cause confusion at first glance in the understanding of the receiver, and is difficult for him to realize the reason for that, was to be for scholars and specialists in Koranic studies that demonstrate the reasons that removes puzzlement of insider Allbeb; because the goal of the speech and other Quranic is to make clear who is unprepared to understand .

Something that encouraged me to choose this research and marked (b transformation theory in the Quranic discourse) in an attempt to find the reasons for this shift, and the extent of its effect on the intended meaning .

It is worth mentioning that this study does not mean a new interpretation come by - God forbid - it is an honor not Anlh not Abssi myself emirate as bad, but are the point of view in a statement that anonymous him all Mufsrin- to limit my knowledge -omaholh to supplement the scientific library of knowledge in a new study in theme, has never, as one of the researchers in this subject, such as books .

مقدمة:

الحمد لله فوق حمد الحامدين والصلاة والسلام على سادة الخلق اجمعين محمد واله الطيبين الطاهرين وعلى من والاهم وتبرأ من اعدائهم الى يوم الدين.
وبعد:

لا شك في أن حسن الكلام إنما يكون بالتناسب القائم بين أجزائه والارتباط بين مقاطعه. والقرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو سفر العربية الفريد وكنزها الثمين الذي أذهل بلغاءها وأعجز فصحاءها. فقد جاء في بناء محكم السرد، متماسك السبك متين الأسلوب، متصل بعضه ببعض، كأنه عقد منتظم تناسقت حروفه واثلت كلماته وجمله وآياته، والتحمت معانيه في انسجام تام حتى جاء أوله مرتبطاً بآخره، وآخره مؤتلفاً مع أوله في نظام لا يرقى إليه أي كلام أو نظم أبداً.

وتمثل الآية القرآنية اللبنة الأساسية في تكوين السورة، وترتبط أجزاؤها سواء أكانت مفردات أم جملاً بروابط تشد بعضها إلى بعض فتأتي المفردات بعناية وكل في مكانها المناسب ما يشكل ترابطاً وثيقاً بين

اللفظ والمعنى فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ بل (الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ)^(٢).

ومن المستكره أن لا يتلاءم كلام البشر العاديين ولا تتناسق أجزاؤه ولا تتربط فيما بينها مما ويجعل المتلقي في حالة من التشويش الذي ينسحب إلى الفهم الخاطئ والتوهم. وهذا الأمر أدركته العرب أهل اللسان والبيان بقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): (إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها ماثلاً لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونه)^(٣).

وهذا الرماني (ت ٣٨٦هـ) كان قد قسم التأليف على ثلاثة أوجه بناءً على تلاؤمه وتجانسه: (متنافر، ومتلائم من الطبقة الوسطى، ومتلائم من الطبقة العليا، والمتلائم من الطبقة العليا القرآن كله وذلك مبین لمن تأمله)^(٤).

وما لفت نظري وآثار انتباهي وجود ما يوهم ظاهره بعدم الملائمة في التأليف في آيات القرآن الكريم! فتجد الكلام في الآية الواحدة يتحدث في أولها عن موضوع ما، وفي وسطها يتحول الخطاب إلى موضوع آخر أو حتى في آخرها، وهو ما يؤكداه الإمام الباقر عليه السلام في قوله: "يا جابر أن للقرآن بطناً وللبطن بطناً - إلى أن يقول: - أما الآية يكون أولها في شيء وأوسطها في شيء وهو كلام متصل متصرف على وجوه"^(٥). فكان هذا هو سبب اختياري للبحث الموسوم (نظرية التحول في الخطاب القرآني).

وصرت استقرأ الآيات في القرآن الكريم التي يكون فيها الخطاب متحولاً ومتنقلاً من موضوع إلى آخر محاولاً إحصاؤها وتبسيط الضوء عليها واستكناء معانيها وأسباب وجود هذا التحول في الخطاب القرآني وما تأثيره على المعنى ما يشكل مشكلة للبحث.

وجدير بالذكر أنني تعمدت عدم احصاء كل موارد نظرية التحول في القرآن الكريم وذلك؛ لابقى الباب مفتوحاً أمام الباحثين لإيجاد موارد واستكناء معانيه وفوائده، إيماناً مني أن درر القرآن العظيم كثيرة لا تنفسي وإن كل درة يستخرجها الباحث تختلف روعة وبهاء عما استخرجه الذي قبله. وقد احصيت في أربع عشرة سورة من القرآن الكريم التحول في الخطاب في سبعة وعشرين موضعاً، ذكرت منها في هذه الدراسة اثني عشر فقط تيمناً بعدد الأئمة المعصومين من بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وسوف لن أذكر بقية المواضع للعلّة نفسها. وليس احتكاراً للمعلومة مما قد يظنه البعض.

والغريب في الأمر - على حد اطلاعي - أنني لم أجد عند المفسرين من الفريقين ما يبرر هذا التحول أو يلفت النظر إليه، ولعل ذلك بسبب عدم الانتباه أو التغاضي أو غير ذلك مما يكون الله تعالى به أعلم.

٢- دلائل الأعجاز، الجرجاني، ص ٤٨ .

٣- البيان والتبيين، الجاحظ، ١، ٥٥ .

٤- النكت في الإعجاز القرآن، الرماني، ٩٥ .

٥- المحاسن، البرقي، ٢ / ٢٠٧ .

والجدير بالذكر أن هذه النظرية عنيت بدراسة التحول في الخطاب القرآني وتأثيره على المعنى فحسب، من دون الدخول في بيان معناها اللغوي فذاك أمرٌ قد كفانا المفسرون واللغويون مؤونته. وأيضاً فإن الدراسة هنا اقتصرَت على بيان التحول في الخطاب داخل الآية الواحدة فقط وليس في السورة القرآنية بعيداً عن المثبتين للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم والنافين لها، رعاية للاختصار وتدقيقاً في الاختيار. وقد اقتضت الخطة لهذه الدراسة أن تكون على ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتختتمها النتائج فقامت المصادر.

وقد عني المبحث الأول ببيان مفاهيم مفردات العنوان، وجاء المبحث الثاني ليتناول اثبات وجود الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال استعراض أدلة المثبتين والنافين لها ومناقشتهم، وجاء مسك الختام في المبحث الثالث فعني ببيان أسس وفوائد هذه النظرية من خلال التطبيقات العملية على بعض الآيات التي استقرأنها من السور القرآنية المباركة. وأخيراً فإن هذه النظرية إنما تمثل وجهة نظر الباحث وليست هي من المسلمات العقلية، فهي إذا معرضة للنقد والتقويم من أهل العلم والعلماء، ولا تمثل تفسيراً جديداً لآيات الكتاب المبين فأن القول بالرأي في تفسير القرآن هو أمر مذموم أبعدنا الله تعالى عن عواقبه وهو أمر لا أدعيه لنفسي الإمارة بالسوء.

المبحث الاول: مفاهيم ذات صلة:

١- مفهوم النظرية:

أن لفظ النظرية في اللغة العربية مشتق من النظر الذي يحمل في دلالاته معنى التأمل العقلي^(٦). وفي الاصطلاح فقد تعددت تعريفاتها واختلفت ألفاظها مع توحيد المعنى فقول هي: (القضية التي تحتاج إلى برهان لإثبات صحتها)^(٧). وقيل هي: (طائفة من الآراء التي تحاول تفسير الوقائع العلمية والظنية أو البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الشخص والموضوع أو السبب والمسبب)^(٨). وقيل هي: (هي بناء أو نسق متدرج من الأفكار يتم فيه الانتقال من المقدمات إلى النتائج)^(٩). وإجمال ما تقدم يكون مفهوم النظرية: هو إعطاء حكم أو التعبير عن وجهة نظر ما، مما يعني أنها تفكير في قضية معينة. هذا التصور لمفهوم النظرية يجعل النظر في مقابل الفعل والعمل، فهي عبارة عن مجموعة من المفاهيم والتعريفات والافتراضات التي تعطينا نظرة منظمة لظاهرة ما عن طريق تحديد العلاقات المختلفة بين المتغيرات الخاصة بتلك الظاهرة بهدف تفسير تلك الظاهرة والتنبؤ بها مستقبلاً.

٦- (ظ) العين، الفراهيدي، ٣/ ٤٠، مختار الصحاح، الرازي/ ٢١، نهاية الأدب في فنون الأدب، النويري، ٢/ ٤٤ .

٧- معجم الاصطلاحات المنطق، السيد جعفر الحسيني/ ٣٢٥ .

موقع الانترنت. <http://ar.wikipedia.org/wiki> - Lhttp

موقع الانترنت. <http://ar-com.Alnazerah> - https

٢- مفهوم التحول:

لغة: (الحول والتحول واحد، قال تعالى: (لَا يَبْغُونَ عَلَيْهَا حَوْلًا) ^(١) فمعناه لا يبغيون عنها تحولا، ^(٢) (وحال الشيء حولاً وحؤولاً. وأحال، والأخيرة عن ابن الإعرابي كلاهما تحول. وفي الحديث: " من أحال دخل الجنة" ^(٣)، يريد من أسلم، لأنه تحول من الكفر عما كان يعيد إلى الإسلام) ^(٤). وفي الاصطلاح، فالتحول أو الاستحالة: (هي تبدل صورة نوعية وانتقال الماهية إلى صورة أخرى واكتساب اسم مابين للأول) ^(٥). وقيل: ان التحول هو: (تحول الشيء من حالة إلى أخرى على النحو الذي يجعله شيئاً آخر) ^(٦).

ويرد على التعريف الأول: انه لم يفرق بين التبدل والتحول، إذ ان هذه الالفاظ مع تقاربها في المعنى على نحو الظاهر لا ان الفرق بين التبدل والتحويل: هو أن يجعل مكان الشيء شيء آخر أو تحول صفته إلى صفة أخرى، والتحويل لا يستعمل في تبدل ذات بذات أخرى ^(٧)، أو انتقال الماهية الى صورة اخرى، وإنما يبقى الموضوع واحداً ضمن الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم وربما يصرف المعنى إلى معنى آخر.

ومعنى اخص، ان الارتباط بين كلمات الآية باق في نظرية التحول الا انه غير ظاهر، والذي يتغير ظاهرا هو صفة الالفاظ والمعاني، وغاية هذه النظرية هو ايجاد هذا الترابط وتبسيط الضوء عليه ومعرفة اسبابه ومدى تأثيره في المعنى.

ويرد على التعريف الثاني: انه اجمل الكلام في لفظة (الشيء)، مما يسمح بدخول الماهية ايضا، فيرد عليه ما اوردناه على التعريف الأول.

ويمكن لنا ان نعرف المراد بالتحول المزمع بيانه في هذه الدراسة بانه: تغيير اللفظ وانتقال المعنى من موضوع الى آخر مع الابقاء على الوحدة الموضوعية للخطاب المتوجه لإفهام من هو متهيء للفهم. وقد يتبادر إلى البعض أن التحول هو نفسه الالتفات المذكور في علم المعاني عند أهل اللغة، والحق أن التحول في الخطاب شيء و أسلوب الالتفات شيء آخر. فالمطلع سيلمس أن التحول إنما يعني بتحول الخطاب القرآني وإظهار السبب في هذا التحول من خلال متابعة المعنى واستقراء السياق في الآية الواحدة أو في الآيات المتعددة. فالتحول يدرس معنى الآية وأسباب التحول في الخطاب إن وجد فيها. وأما صنعة الالتفات فهي تعنى بالحروف والكلمات من جهة المعنى اللغوي فحسب ولا علاقة له بالمعنى السياقي للآية وهذا واضح من تعريفاتهم له، إذ يذكر صاحب فقه اللغة أن الالتفات هو: (أن

١٠- الزاهر في معاني كلمات الناس، ابن الانباري/ ٤٥٩. والآية / ١٠٨ من سورة الكهف .

١١- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ١ / ٤٦٣ .

١٢- لسان العرب، ابن منظور: ١١ / ١٨٨ .

١٣- معجم المصطلحات و الألفاظ الفقهية: ١ / ٤٢٠

١٤- معجم ألفاظ الفقه الجعفري، ٤٥ .

١٥- معجم المصطلحات و الألفاظ الفقهية: ١ / ٤٢٠ .

تذكر الشيء وتتم معنى الكلام به، ثم تعود لذكره كأنك تلتفت إليه^(١٦). و يضرب لذلك مثلاً قوله تعالى: (لَا تَقْتُروا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحَتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى) ويعلق على ذلك بقوله: (فنهى عن الافتراء ثم وعد عليه فقال: "وقد خاب من افترى"^(١٧)).

فتجد أن الالتفات هنا إنما عني بلفظة (افترى) و (لا تفتروا) من دون بيان المعنى المراد أو السبب في هذا.

بينما في نظرية التحول سوف يلمس المطلع إمعان النظر وإعمال الفكر في استكفاء المعنى من الجملة المعترضة، ووضع الأسباب التي تجلي الاستغراب من وجوده، وقطع الكلام به وافترض كيفية المعنى لو لم يكن التحول في الخطاب.

وفي خزانة الأدب تعريف للالتفات: (هو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى فيعترضه إما شك فيه أو ظن أن رادا يرده عليه، أو سائلاً يسأله عن سبب فيلتفت إليه بعد فراغه منه، فأما أن يجلي الشك أو يؤكد أو يذكر سببه)^(١٨).

وهذا التفسير بعيدٌ عن كلام الله تعالى وعن الخطاب القرآني، بل أن وجود التحول في الخطاب ضمن نظرية التحول، هو لإرساء المعاني وتطمين حال المتلقي بإيصال الفهم إليه من خلال التحول في الخطاب، لا أن الله تعالى يشك أو يظن، ثم أنه سبحانه لا يحتاج إلى التبرير لذلك؛ لأنه أوكل لنبيه محمد ﷺ تبين القرآن الكريم فالأمر إذا لا يتعلق بالذات الإلهية بقدر ما يتعلق بالوحدة الموضوعية في فهم الخطاب لدى المتلقي.

وأما صاحب كتاب البليغ في المعاني فيذكر أقساماً ستة للالتفات وكالاتي:

١- من المتكلم إلى المخاطب نحو: (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون) ومقتضى الظاهر (أرجع).

٢- من التكلم إلى الغيبة نحو: (أنا أعطيناك الكوثر. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) ومقتضى الظاهر (فصل لنا).

٣- ومن الخطاب إلى التكلم، نحو قول الشاعر:

طحا بك قلب في الحسان طروب يعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفني ليلى وقد شط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب

ومقتضى الظاهر (يكلفك).

٤- ومن الخطاب إلى الغيبة نحو: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم" والظاهر (بكم).

٥- ومن الغيبة إلى التكلم نحو: (اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ) والظاهر (فسافه).

٦- من الغيبة إلى الخطاب: (مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ. إِنَّكَ نَعْبُدُ) والظاهر (إياه).

١٦- فقه اللغة وسر العربية، المبارك/ ٣٦٦.

١٧- م. ن.

١٨- خزانة الأدب، الحموي ٥٩.

فتجد في جميع الأمثلة السالفة أن الالتفات لم يعالج قضية المعنى أو الاعتناء بالسياق من الآيات التي سبقت هذه الآية ذات المثل. أو التي تلتها، وإنما اقتصر الأمر على الجمع والمفرد في المثال الأول وعلى الضمير في الأمثلة الباقية. مما يمكن أجابته بأنه من عادة العرب (الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة)^(١٩)، في حين ان نظرية التحول المزمع بيانها في هذه الدراسة تعنى ببيان انتقال الخطاب وتحوله من موضوع إلى آخر وسبب هذا التحول في الخطاب وما مدى تأثيره في المعنى؟

٣- مفهوم الخطاب القرآني:

جاء معنى الخطاب في اللغة بأنه الكلام بين اثنين يقال: خاطبه يخاطبه خطاباً^(٢٠). (والخطب سبب الأمر. تقول: ما خطبك)^(٢١). وجمعها خطوب^(٢٢).

ولا يخرج معناه الاصطلاحي عنه في اللغة فقد عرفه المحقق الحلي (ت ٦٧٦هـ): (هو الكلام الذي قصد به مواجهة الغير)^(٢٣)، وعرفه الآمدي (ت ١٢٥٠ هـ) بأنه: (اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه)^(٢٤).

ونفهم من ذلك ان المراد بالخطاب القرآني، هو الدلالات التي دلَّ عليها القرآن الكريم، من حيث المفهوم، والفحوى والظاهر والاشارة.

ولهذا فان (ما لا يفهمه المخاطب لا يكون خطاباً معه)^(٢٥)، ذلك لأن الكلام من الأفعال الاختيارية للإنسان فلا بد أن يكون له غاية عقلانية من كلامه، وهي بطبيعة الحال إرادة إفهام الغير وإعلامه بما في الضمير، فكلامه إنما صدر منه بداعي الإفهام، وليس مما يستعمل فيه اللفظ استعمالاً إنشائياً.

وما نريد إثباته هنا أن الله تعالى - وهو سيد العقلاء - لابد أن يكون خطابه للمخلوقين على نحو الإفهام لهم، ومسألة تحول الخطاب في آياته المباركة، لابد وأن تكون لغاية مهمة، يجب على المتخصصين إظهارها وبيان ماهيتها ومدى تأثيرها على المعنى المراد، كي لا يقع المتلقي بشبكة الأوهام، أو التناقض الموهوم في آيات القرآن الكريم.

١٩- أملاء ما من به الرحمن، العكبري: ١/ ٦، (ظ) زبدة التفاسير، الكاشاني: ١/ ٢٩.

٢٠- (ظ) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ٢/ ١٩٨.

٢١- مختار الصحاح، الرازي: ١٠١.

٢٢- م. ن.

٢٣- معارج الأصول، المحقق الحلي: ٤٩.

٢٤- الأحكام، الآمدي: ١/ ١٣٦.

٢٥- المستصفي، الغزالي: ١/ ٥٦.

المبحث الثاني: نظرية التحول وعلاقتها بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم:

لنظرية التحول -موضوع البحث- أثر بالغ في إثبات الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم فقد اختلفت الآراء حول وجود وحده موضوعية تمثل الترابط بين أجزاء القرآن الكريم ما بين مثبت لوجودها وبين ناف لحقيقتها أصلاً ولكل أدلته التي سوف استعرضها في ادناه.

الفريق الأول:

يرى هذا الفريق أن السورة القرآنية تمثل نصاً متكاملًا مترابط الأجزاء، مساقاة لغرض واحد، يظهر من خلال ائتلاف المقاطع مع بعضها والتحام الآيات، وهي تشكل وحدة موضوعية تتضمن أجزاء متناسقة فيما بينها تجتمع هذه الأجزاء وتشابك لتصب في هذه الوحدة، لذا لا يمكن النظر إلى كل جزء أو آية على أنها منفصلة ولا علاقة لها بالأجزاء الأخرى، وعلاقة هذه الأجزاء جميعاً بوحدة الفكرة والموضوع؛ لأن هذا يجعل النص القرآني مبعثراً فاقداً لوحده الفكرية والموضوعية التي استهدفها^(٢٦). يقول العلامة الطباطبائي: (كل سورة مسوقة لبيان معنى خاص ولغرض محصل لاتتم السورة الا بتمامه). وهذا الأمر هو ما جعل نظرية المحتوى الدلالي أو (المعنى بالذات) تفشل في فهم الخطاب القرآني كونها لا تعنى بالوحدة الموضوعية وشمولية الخطاب القرآني بل تبحث في الكلمة ومدلولها في معاجم اللغة^(٢٧).

ومن أدلتهم على وجود الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة:

١- توقيفية ترتيب السور والآيات القرآنية:

من المعلوم أن جمع القرآن الكريم وترتيبه كان قد تم بأمر من النبي ﷺ في حياته^(٢٨). فكانت الآيات والسور من القرآن الكريم، تنزل تدريجياً طيلة (ثلاث وعشرين) سنة وكان ﷺ يأمر كتاب الوحي بوضع الآيات النازلة في الموضوع الذي يحده لهم. كما حصل في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ) (النحل/٩٠) إذ قال ﷺ: (أتاني جبرائيل فآخبرني أن أضع هذه الآية هذا الموضوع من السورة)^(٢٩).

فمع أن الآية لم تنزل متصلة مع الآيات التي قبلها أو التي بعدها إلا أن وضعها هنا أمراً توقيفياً اقتضته الحكمة الإلهية، ولا بد أن يكون فيها من الموضوع ما يتعلق بالآيات التي سبقتها أو التي تلتها.

٢٦- (ظ) البلاغة الحديثة في ضوء القرآن، البستاني: ١٦٦.

٢٧- (ظ)، نظريات تشكل الخطاب، محمد مصطفى، ص ٣٦.

٢٨- تدارست كثير من المصادر مسألة جمع القرآن منها على سبيل المثال: البرهان، الزركشي: ١/ ١٨٣، والاتقان، السيوطي: ٩٧، وتاريخ القرآن، الزنجاني وغيرها ولعل أفضل من فصل الكلام فيها السيد الخوئي (رحمته) في كتابه البيان في تفسير القرآن إذ أورد جميع روايات جمع القرآن وترتيبه وناقشتها بشكل موضوعي مفصل تحت عنوان (فكره عن جمع القرآن: ٢٣٩-٢٥٩) أثبت من خلالها أن الجمع والترتيب الذي عليه آيات وسور القرآن هو توقيفي عن النبي ﷺ.

٢٩- مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ٢١٨.

وهكذا الحال مع آيات نزلت متفرقة جاءت متأخرة في نزولها مع الآيات التي وضعت معها. وهذا الأمر يدلنا على الحكمة الإلهية التي اقتضت أن تكون تلك الآيات في ذاك الموضع وأنه لا بد أن يكون هناك موضوعاً جامعاً تدور حوله الآيات الموضوعية في موضع واحد من السورة. ومثال ذلك قوله تعالى: (وَأَنْتُمْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (البقرة/ ٢٨١)، إذ أنها من أواخر الآيات التي نزلت قبيل وفاة النبي ﷺ ومع هذا نجد أنها وضعت مع آية (الزبا) (٣١)، وآية (الدين) (٣٢)، بإشارة من النبي ﷺ فقد جاء عن ابن عباس أنه قال: (أنها آخر ما نزل من القرآن فقال جبرائيل: ضعها مع رأس الثمانين والمئتين) (٣٢).

ولو لم يكن الأمر خاضعاً لترتيب يراعى فيه اتصال الموضوعات بعضها ببعض ودورانها حول المحور العام للسورة كاملة، لكان وضعها هنا معيباً، وفيه من المؤونة ما لا يخفى على المطلع اللبيب.

٢- الدليل النقلي:

فقد تكاثرت الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام التي تبين وتصرح بأهمية مراعاة الارتباط بين أجزاء القرآن الكريم بعضها ببعض وصولاً إلى فهم وتفسير صحيحين لمراد الله سبحانه وتعالى ومن هذه الروايات:

أولاً- قال جابر بن عبد الله الجعفي: "سالت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من التفسير فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر. فقلت: جعلت فداك كنت قد اجبني في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم. فقال عليه السلام: يا جابر أن للقرآن بطناً وللبطن بطناً... يا جابر ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، أن الآية يكون أولها في شيء وأوسطها في شيء وهو كلام متصل متصرف على وجوه" (٣٣).

فالرواية تؤكد أن الآية الواحدة تتناول موضوعات متعددة يبدو للمطلع لأول وهلة أنها مختلفة، فأولها في شيء، وآخرها في شيء، وأوسطها في شيء، لكنها في الحقيقة كلام واحد رصين ومترايط الأجزاء، وإنما القصور في عقول الناس، فهي فقيرة عن أدراك حقيقة القرآن وبيان الاتصال في كلماته. وهو الأمر الذي نروم إثباته في هذا المبحث وجعل الاتصال بين مفردات الآية واضحاً كالشمس في وضوح النهار.

ثانياً- جاء في حديث طويل عن الإمام الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (واعلموا رحمكم الله أنه من لم يعرف من كتاب الله عز وجل الناسخ من المنسوخ والخاص والعام.. والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤتلفة... والابتداء والانتها والوسائل والجواب.. والقطع والوصل والمستثنى منه

٣٠- البقرة/ ٢٧٥ .

٣١- البقرة / ٢٨٢ .

٣٢- مجمع البيان الطبرسي: ٢ / ٢١٤ .

٣٣- المحاسن، البرقي: ٢ / ٢٠٧، (ظ) تفسير العياشي: ١ / ١١ .

والجاري فيه والصفة لما قبل ما يدل على ما بعد والموصول من الألفاظ والمحمول على قبله وعلى ما بعده فليس بعالم بالقرآن^(٣٤).

فتجد أن الأمام عليه السلام يؤكد في هذه الرواية على أهمية معرفة اتصال الألفاظ بعضها ببعض، وأن هناك مسائل لا بد من الإحاطة بها لمعرفة المراد من كلامه سبحانه، وأن لا غريب يذكر بين كلمات القرآن، لكننا القصور في عدم معرفة هذه المسائل يؤدي إلى هذا الفهم الخاطئ في عدم الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم.

٣- الدليل العقلي:

أن الذوق الإنساني الرفيع يستكره عدم ملائمة كلام البشر العاديين وربما عدوا صاحبه بالحق أو الجنون فلا بد للكلام الفصيح من أن تتلاءم كلماته، وتتناسق أجزاؤه، وأن لا يدخلها الغريب عن موضوعها العام، لئلا يؤدي ذلك إلى الفهم الخاطئ للمتلقي والارتباك في الذهن وعدم التركيز في المعنى. قال الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): (إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند أنشاد ذلك الشعر مؤونة)^(٣٥).

فالكلام المترابط بعضه ببعض يؤثر في متلقيه بينما يفقد هذه الخصوصية لو كان مشتتاً (وربما يحط عندك قدر خطيب مصقع أتى بفنون من البلاغة وأثر في النفوس بخلاصة بيانه لمحض أنه ذهل عن ربط الكلام فهام من واد إلى واد، مع أنه معذور، لأنه ألقى خطبته ارتجالاً ولم يعمل فيها النظر والروية وما مؤاخذتك لذلك الخطيب إلا لأن الكلام البليغ لا يحتمل سوء الترتيب)^(٣٦).

فإذا كان الأمر كذلك مع البشر الخطائين فكيف يكون الحال مع القرآن الذي صرح بأنه: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ،) (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء/ ٨٤) وقد ثبت إعجاز القرآن في نظمته وإحكام ترتيبه وتناسق آياته وسوره ما يؤكد على الوحدة الموضوعية فيه.

٤- العناية بالوحدة الموضوعية عند جمع من العلماء

كانت قضية الوحدة الموضوعية أساساً في تفاسير بعض المفسرين والدارسين المتخصصين بالقرآن الكريم، فقد شكلت لديهم البناء الأساسي الذي تقوم عليه ترابط الآيات فيما بينها حتى وصف بعضهم القرآن الكريم كالكلمة الواحدة^(٣٧).

وتناول بعض الباحثين هذه القضية في القرآن الكريم بدراسات منفصلة فيما تناولها بعضهم في ثنايا كلامهم عن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم^(٣٨).

٣٤- بحار الأنوار، المجلسي: ١٩ / ١٩٦.

٣٥- البيان والتبيين، الجاحظ: ١ / ٥٥.

٣٦- دلائل النظام، الهندي: ٣٩.

٣٧- (ظ) البرهان، الزركشي: ١ / ٤٩.

٣٨- ومنهم: محمود حجازي في كتابه الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وعبد الله درازي، النبا العظيم.

وأكد هذا المعنى بعض الأصوليين الذين أشاروا إلى الترابط بين أجزاء السور القرآنية وعدها كلاماً واحداً لا تنفصل أجزاؤه بعضها عن بعض^(٣٩).

مناقشه ورأي:

مع أيماني بضرورة وجود الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، لأنه كتاب سماوي تعهد الله تعالى بحفظه وتكفل بتعظيمه وإظهاره وأمر بإتباعه وبيانه، من جهة. وأنه موضوع بحثي الذي أروم إثباته من جهة أخرى، إلا أنني لا أجد الرصانة في الأدلة التي استند إليها القائلون بالوحدة الموضوعية، ما خلا الترتيب التوقيفي لآيات وسور القرآن الكريم مع أنها مسألة خلافية عند علماء المسلمين.

وإما الدليل النقلي فالروايتان المتقدمتان، لا تسعفان إثبات الوحدة الموضوعية، إذ تؤكد الرواية الأولى على التفسير الباطني للآيات، وأن الأمام عليه السلام كان قد فسر لجابر تفسيراً ظاهراً ثم أعقبه بتفسير باطن، بل أن الرواية تؤكد على عدم الوحدة الموضوعية؛ ذلك لأن أولها يكون في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء، مع أنه (كلام متصل) في إشارة إلى الإعجاز في نظم القرآن الكريم.

والرواية الثانية لم تبين إلا مسائل من الضروري لمن يروم أن يسبر غور التفسير أن يحيط بها، مبنية أصناف الآيات القرآنية ولا علاقة لها بالوحدة الموضوعية لا من قريب ولا من بعيد. وأما الدليل العقلي فلا تعين كثرة الدراسات للوحدة الموضوعية على إثباتها لأن في مقابل هذا دراسات نفت وجود هذه الوحدة وما هو إلا ادعاء يحتاج إلى الدليل العلمي. فتأمل.

الفريق الثاني:

ويرى هؤلاء أن آيات القرآن لا يجمعها جامع ولا يرتبط بعضها ببعض، وأن كل سورة تحمل موضوعات متفرقة وضعت مع بعضها ضمن إطارها، بل أن بعضهم أنحى باللائمة على الفريق الأول واعتبر القول بالوحدة الموضوعية تكلفاً لا طائل منه، فقد جاء عن الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) أنه قال: (وأعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب في المصحف فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الأنصاف ويتنزه عنها البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه)^(٤٠).

٣٩- (ظ) الموافقات، الشاطبي: ٣/ ٣٠٩ - ٣١١.

٤٠- فتح القدير، الشوكاني: ١/ ٧٢.

واستدلوا على مدعاهم هذا بأدلة منها:

١- النزول المنجم لآيات القرآن الكريم وسوره:

فهم قد استبعدوا وجود ترابط بين أجزاء السورة الواحدة نظراً إلى أن النزول كان متفرقاً بحسب الحوادث, وأن كثيراً من السور لم تنزل دفعة واحدة, (وأن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة..)^(٤١) وأن من يربط بين آياته يتكلف أمراً (لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصاب به حسن الحديث فضلاً عن أحسنه)^(٤٢).

٢- تحديد المحور في الاجتهاد العام للسورة:

يرى النافون لقضية الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم, أن تحديد المحور العام أو العنوان الرئيس الذي تتناوله السورة أمر يرجع إلى اجتهادات المفسرين, وبذلك تتعدد المحاور أو عناوين موضوعات السور بحسب كل مفسر وبحسب ما تمليه عليه ثقافته ومعطياته الفكرية والعقدية, فيتعدد تحديد الموضوع لكل سورة عند المفسرين. لأن كلاً منهم (يجعل للسورة الكريمة هدفاً ينتزعه من ملاحظة معانيها ثم ينزل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف)^(٤٣).

٣- إهمال الموضوعات الثانوية في السورة:

يرى هذا الفريق أن تحديد السورة بموضوع واحد أو إطار عام قد يهمل موضوعات جانبية أخرى وردت في السورة مما لا يتفق مع العنوان الرئيس أو الإطار العام الذي حدده المفسر^(٤٤).
اذ ان من المعلوم أن السور القرآنية اشتملت على كثير من الموضوعات مما لا يمكن حصرها في عنوان واحد, فإذا حصل هذا الحصر فإن كثيراً من الموضوعات الأخرى سوف تضيع بسبب هذا الإدعاء الذي أسمه الوحدة الموضوعية.

مناقشة ورأي:

أن ما ذكره أصحاب هذا الرأي من أدلة لا تصمد أمام الدليل ولا يمكن أن تنفي حقيقة الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم. فالدليل الأول فيه: أنه يجب التفريق بين الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية. فالوحدة العضوية على رأي الأستاذ على آل موسى^(٤٥), يعني تماسك الآيات وتلاحمها, واما (الوحدة الموضوعية تعني أن تتشابه آيات السورة بحيث تنتج موضوعاً متكاملًا, وتقاطع مع الموضوعات الأخرى

٤١- البرهان, الزركشي: ١ / ٥٠ (ظ) قواعد التفسير, المبيدي/ ٣١٧ .

٤٢- م. ن .

٤٣- المدخل إلى التفسير الموضوعي, عبد الستار فتح الله / ٢٤ .

٤٤- (ظ) التدبر الموضوعي, علي آل موسى: ٢١٣ .

٤٥- م. ن .

في السورة إنما يتم بقدر ما يخدم الموضوع الأصلي لا بما يسد جميع الموضوعات التفصيلية الأخرى في القرآن الكريم^(٤٦).

فالوحدة الموضوعية (تبحث موضوعاً ما فتشبهه فكرة وتمحيصاً وإضاءة وتنتقل إلى موضوع آخر يرتبط نظاماً وسياقاً بالموضوع الأول، ويتقدم الموضوع الثالث من السورة كياناً مستقلاً ولكنه يتعلق بوجه ما بالموضوع السابق، ويتبلور الموضوع الرابع فتمسكه فكرة قائمة بذاتها لكنها متصلة بالموضوع الخامس)^(٤٧) هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن اعتماد أصحاب هذا الرأي على النزول المتفرق فيمكن القول أن القرآن الكريم وإن تضمن معاني عديدة وآياتها نزلت في ظروف زمانية منفصلة وفي وقائع وإحداث مختلفة، إلا أنها ملتئمة مع بعضها ومتناسقة ومنظمة فهي (وإن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع كمثال بنیان كان قائماً على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكان، قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فرقت أنقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه عرفت مكانها المرقوم وإذا البنیان قد عاد مرسوفاً يشد بعضه بعضاً)^(٤٨).

وإما الدليل الثاني ففيه: أن تحديد المحور للسورة لا يقدر في ترابط السورة الواحدة، إذ أن تحديد الموضوع وإن اختلف فيه إلا أنه لا يعني أن ليس هناك موضوعاً تتناوله السورة. بالإضافة إلى أن تحديد الموضوع يحتاج إلى تعمق وفهم دقيقين في كل مفصل من مفاصل السورة. يقول محمد عبد الله دراز: (أنه يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية أو اكتشاف العلاقة بين الأفكار بعضها مع بعض، أو بينها وبين النواة المركزية للسورة)^(٤٩). لذا لا يعد هذا الأمر سبباً في عدم وجود الوحدة الموضوعية فإثبات الشيء في تحديد المحور للسورة لا ينفي ما عدها من المواضيع الأخرى.

والدليل الثالث الذي أورده أصحاب هذا الرأي، فإنه أدعاء يخلو من الصحة ويفتقر إلى الدليل إذ أن تحديد موضوع السورة في محور ما لا يعني إهمال الموضوعات الجانبية، بل لابد لهذه الموضوعات من أن ترتبط من جهة ما بالمحور الرئيسي للسورة.

وخلاصة ما تقدم يرى الباحث أنه لابد من وجود الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم لسبب عقلي واضح وبسيط، وهو أن العقلاء كلهم متفقون على قبح الكلام غير المترابط، وأن من المستحسن أن يكون الكلام مترابطاً متناسقاً وكلام الله تعالى لابد أن يكون كذلك، وذلك لأنه أعجز العرب وهم أئمة الفصاحة وأرباب البلاغة في أن يأتوا بمثله وقد أبهرهم حسن نظمه وإلى يوم القيامة فوحدة موضوعة موجودة ظاهرة للعيان المتأملين، وهذا الأمر هو ما نريد إثباته من هذه الدراسة في أن التحول في الخطاب

٤٦- م. ن.

٤٧- المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم. د. محمد حسين الصغير / ١٥٧.

٤٨- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز / ١٥٤.

٤٩- المدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز / ١٢٢.

القرآني لابد وأن يكون له سبب يربط موضوعه بالوحدة الموضوعية داخل الآية الواحدة وداخل السورة فالقرآن ككل.

المبحث الثالث: فوائد نظرية التحول وتطبيقاتها:

أن النظرية الجيدة في نظر الباحثين هي تلك النظرية التي تستوفي شرطين أساسيين هما:
الأول:- أن تكون قادرة على وصف مجموعة من الوقائع في ضوء نموذج يركز على عدد قليل من المصادر أو العناصر العشوائية، وهي القضايا التي يتم التسليم بها من غير إقامة الدليل على صحتها. وإنما يتم قبولها لاستحالة الحكم عليها، لا بأنها صحيحة ولا بأنها خاطئة.
والآخر:- أن تكون قادرة على التكهّن بنتائج الملاحظات المستقبلية، وهذا الأمر حرصنا على إثباته هنا في نظرية التحول في الخطاب القرآني من خلال وصف مجموعة من الآيات القرآنية ورصد التحول في الخطاب فيها وبيان فوائدها، وهي كالآتي:

١- قوله تعالى: (أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)(البقرة/٩١).

ومحل الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: "والله محيط بالكافرين" فالخطاب في هذه الآية متوجه إلى ضرب مثل للمنافقين الذين استضأوا بضوء إقرارهم بالإسلام مع استسراهم الكفر، كمثّل موقد نار يستضيء بضوء ناره في ليلة ظلماء^(٥٠). فعن ابن عباس: (أنه شبه المطر المنزل من السماء بالقرآن، وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، وما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر، وما فيه من البرق بما في القرآن من البيان، وما فيه من الصواعق بما في القرآن من الوعيد آجلاً والدعاء إلى الجهاد عاجلاً)^(٥١).

ثم تحول الخطاب إلى الإحاطة بالكافرين، فقال: "والله محيط بالكافرين"، ولم يتطرق المفسرون إلى بيان سبب هذا التحول، إلا أنهم قالوا: (وهذه الجملة اعتراض)^(٥٢)، وقالوا في تفسيرها أمران^(٥٣):
الأول: أنه عالم بهم، فيعلم سرائرهم.

والآخر: المقتدر عليهم، ولا يستطيعون الخروج عن قدرته.
الفائدة:- لو لم تكن هذه الجملة الاعتراضية التي تحول إليها الخطاب لتوهم بعضهم أن وضع الأصابع مفيد، وأنه بإمكان الإنسان أن يحذر من الموت فالكلام يعد تاماً إذا وقف الخطاب على قوله تعالى: (حذر الموت)، إلا أن الجملة هذه وقفت حائلاً عن ذلك التصور لتخيب آمال المنافقين في عدم

50- جوامع الجامع، الطبرسي: ٨٠ / ١ .
51- م. ن .
52- (ظ) تفسير التبيان: ٩٢ / ١، تفسير الأصفى، الفيض: ١٨ / ١، كنز الدقائق، المشهدي: ٢٢٤ / ١، تفسير البحر

المحيط،: ٧٨ / ١ على سبيل المثال لا الحصر .

الخلاص من قدرة الله تعالى وقضائه فهو محيط بهم. وأيضاً فقد أبانت أن المنافقين والكافرين سواء، والله أعلم.

٢- قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (البقرة/٦٧).

قال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) في تفسير هذه الآية: (واذكروا إذ قلتم يا معشر بني إسرائيل لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد، وذلك الطعام هو ما أخبر الله عز وجل إذ أطعمهم في تيههم وهو السلوى في قول أهل التفسير. وفي قول ابن منبه: الخبز النقي مع اللحم)^(٥٤).

وذكر المفسرون، أن الله تعالى أعطى لبني إسرائيل ما طلبوه من أنواع الطعام تكريماً لهم وتثبيتاً للحجة عليهم. ثم استأنف حكم الذين اعتدوا في السبت ومن قتل الأنبياء فقال: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ)^(٥٥). واستدلوا بهذه الآية على (إباحة أكل الثوم والبصل وماله رائحة كريهة)^(٥٦).

والذي يبدو من كلام المفسرين: أن الله عز وجل أسبغ نعمه على بني إسرائيل وأنه كان قد أعطاهم طعاماً لذيذاً- السلوى- فاستبدلوه بطعام غيره أقل فائدة من الأول، وأنه قد استفيد من هذه الآية على إباحة أكل الطعام الذي طلبه بنو إسرائيل. وأن تحويل الخطاب هو استئناف لبيان حكم الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل، لا هؤلاء الذي كانوا مع موسى وطلبوا ما طلبوا.

وأرى أن هذا الكلام فيه نظر يمكن توضيحه من خلال نظرية التحول، إذ أن هذه الجملة الاعتراضية لو لم تأت لتحويل الخطاب بعد قوله تعالى: (لكم ما سألتم)، لتبادر إلى الذهن أن الله تعالى راضٍ عن اليهود بما أعطاهم من مننه على حسب طلبهم فجاءت هذه الآية (وضربت عليهم الذلة..). لتوضح أن اليهود لازموا الذلة وأن كانوا جبابرة في الأرض، فإنما (الغنى غنى النفس) وهم فقراء في أنفسهم، لأنهم خالون من الإيمان. ولا يمكن أن يكون الكلام استئنافاً لبيان حكم غير هؤلاء من بني إسرائيل، فالسياق لا يعين في ذلك خاصة مع وجود قوله تعالى معاتباً إياهم (اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) فهذا الخطاب متوجه إليهم أذاً. وأنه تعالى غير راضٍ عنهم بل جاء بتوبيخهم في الخطاب المحول. والله أعلم.

٥٤- التبيان: ١/ ٢٧٥، و (ظ) جميع البیان، الطبرسي: ١/ ٢٣٣، البحر المحیط أبن هیان: ١/ ٣٧٧، تفسير أبن کثیر: ١/ ١٠٤، الدر المنثور، السيوطي: ١/ ٧٢.
٥٥- مجمع البیان، الطبرسي: ١/ ٢٤٠.
٥٦- مقتنيات الدرر، الحائري: ١/ ١٨٤.

٣- قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) (البقرة/٨٧).

ومحل الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى...) ذكر المفسرون في تفسير هذه الآية ان الخطاب فيها (متوجه الى بني اسرائيل وكانه قال: يا معشر يهود بني اسرائيل لقد آتينا موسى التوراة وتابعنا من بعده الرسل اليكم وآتينا عيسى ابن مريم الحجج والبيّنات اذ بعثناه اليكم وايدناه بروح القدس، وانتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه انفسكم استكبرتم عليهم تجراً وبغياً وكذبتم منهم بعضاً وقتلتم بعضاً)^(٥٧).

فتلاحظ أن المفسرين لم يلحظوا سبب هذا التحول في الخطاب في آية (أفكلما جاءكم رسول...) . الفائدة: أن الفائدة المرجوة من تحويل الخطاب في آية (أفكلما جاءكم رسول...) هي لكي يتصل الخطاب بالآية التي تليها وهي قوله تعالى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ). وكان لابد من تحويل الخطاب هنا، من إرسال الرسل إلى توبيخ أولئك الذين يقتلون الرسل من بني اسرائيل كما صرحت بذلك الآية محل الشاهد. فلو لم يكن هذا التحول في الخطاب لأصبح سياق الآيتين هكذا: (ولقد آتينا موسى الكتاب وفقينا من بعده الرسل وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس.....- وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا ما يؤمنون) وللسامع أو القارئ أن يتبادر إلى ذهنه معنى غير المعنى المقصود فهناك مدح للرسل وهنا ذم، خاصة وأن السياق يعين على هذا التوهم لأن الآية الثانية تصدرت بـ(وقالوا) والكلام في الأولى عن مجموع الرسل. فكان لابد من الآتيان بهذه الجملة المحولة للخطاب ليتضح أن المراد بهم هم الكفار الذين يقولون: (قلوبنا غلف...) ولتتصل الآية بالآية في وحدة متناسقة متكاملة، ثم ان عمل المشركين من امة محمد ﷺ مشابه لعمل الكفار من امة سيدنا موسى عليه السلام فجاء التحول في الخطاب ليذكر من عاصر النبي ﷺ بفعل اسلافهم وناسب هذا التحول في الخطاب للمشاكلة بين السلف والخلف من الكفار في الافعال. والله تعالى أعلم.

٤- قوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة/١٩٥).

ومحل الشاهد هنا هو قوله تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

٥٧- البيان، الطوسي: ٣٤١/١ و (ظ) على سبيل المثال: مجمع البيان، الطبرسي: ٢٩٥/١، تفسير القرطبي: ٢٣/٢، تفسير البضاوي: ٩٢/١ وغيرها .

جاء في تفسير هذه الآية: (أمر الله تعالى جميع المكلفين المتمكنين بالإنفاق في سبيل الله: أن ينفقوا في سبيله، وسبيل الله هو كل طريق شرعه الله تعالى لعباده، يدخل فيه الجهاد والحج وعمارة القناطر والمساجد ومعاونة المساكين والأيتام وغير ذلك)^(٥٨).

وفي فقه القرآن ذكر انه استفيد من هذه الآية حكم (النهي عن ترك الانفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك، وعن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو)^(٥٩).

وغاية ما حصروه في معنى الآية أن الامتناع عن الأنفاق يؤدي إلى التهلكة^(٦٠) من دون ملاحظة التحول في الخطاب القرآني في قوله تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ).

الفائدة:- أن هذه الجملة الاعتراضية جاءت لتبين الخطر المحدق بالإسلام إذا ترك الناس الجهاد والانفاق في وقت الحرب، ولو لم يكن هذا التحول في الخطاب القرآني لأصبح حكم الانفاق في الآية على نحو الاستحباب، وبتحويل الخطاب هنا توضح المعنى الأعمق في الآية الذي يكاد يكون فيه الانفاق هنا واجباً^(٦١) لا مستحباً في حال الجهاد، بقرينة السياق في الوقوع في التهلكة و إلا فلو رفعنا هذا التحول لأصبح منطوق الآية كالآتي: (وأنفقوا في سبيل الله-.....- وأحسنوا ان الله يحب المحسنين) فالمعنى تام كما تلاحظ، إلا أنه ليس هو مراد الله تعالى فإنه عز وجل أراد أن يعظم أمر ترك الانفاق بأن حول الخطاب إلى قضية خطيرة جداً وهي التهلكة فحذرهم من الوقوع فيها. والله أعلم.

ه- قوله تعالى: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ الْمَصِيرُ) (آل عمران / ٢٨).

ومحل الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: (ويحذركم الله نفسه).
ظاهر الآية على ما قرره المفسرون في مطاوي تفاسيرهم، أنها نعت عن موالة ومصادقة الكفار، وأن الذي يواليهم فهو خالٍ من الإيمان، وأنه يقطع علاقته مع الله عز وجل تماماً. ثم جعلت الاستثناء في مبدأ التقية^(٦٢)، فإنه إذا اقتضت الضرورة موالاتهم فللمسلمين أن يظهروا الصداقة لغير المؤمنين، الذين يخشون منهم على حياتهم.

٥٨- التبيان، الطوسي: ٢ / ١٥١ و (ظ) مجمع البيان: ١ / ٨٧، مقتنيات الدرر الحائري: ٢ / ٣٤، الأمثل، الشيرازي: ٢ / ٣٥ وغيرها.

٥٩- فقه القرآن، الراوندي: ١ / ٢٣٥.

٦٠- (ظ) على سبيل المثال التبيان: ٢ / ١٥١، تفسير الثعلبي: ٢ / ٩٠، زاد المسير، ابن الجوزي: ١ / ١٨٣.

٦١- ذكر ابن العربي في إحكام القرآن: ١ / ١٦٤ ثلاثة أقوال في النفقة منها: (أنها واجبة لقوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).

٦٢ - التقية: هي (الإظهار باللسان خلاف ما ينطوي عليه القلب للخوف على النفس، إذا كان ما يبطنه هو الحق) التبيان، الطوسي: ٢ / ٤٣٤.

وإما جملة (ويحذركم الله نفسه) فأختم بمرون عليها مرور الكرام ليذكروا أن معناها: تحذيرهم من العقاب الذي يأتي من قبله، ويصدر عن أمره، وأن الله تعالى يخوف عباده بعقوبته^(٦٣) حتى أن بعضهم فسر الآية بأنها (دعوة إلى التوحيد العياني، لئلا يكون خوفكم من غيره)^(٦٤).

الفائدة:- أن في هذه الجملة الاعتراضية التي تحول فيها الخطاب دلالة على أنه لا يجوز ملاطفة الكفار، فهي قد نمت عن موالاتهم، ولو رفعنا الخطاب التحويلي في الآية وأصبح الخطاب كالأتي: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً.....- وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)، لأعطت نفس الأمر بالنهي، ولكن قد يؤول إلى الكراهية (وكل مكروه جائز)^(٦٥)، باعتبار حكم الاستثناء الوارد (إلا أن تتقوا منهم تقاه)، أو قد يتوهم أحدهم فيفسر قوله تعالى: (فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ) أي لا مانع من ذلك والأمر محمول على الإباحة خاصة وأن السياق يكون معينا على ذلك باعتبار قوله تعالى في ذيل الآية (والى الله المصير) إذ ان معناها: ان الجزء يقع على الله تعالى اما الجنة واما النار ولم تبين عقوبة موالاة الكافرين. ويتحول الخطاب بأن أضاف التحذير إلى نفسه تعالى، بيان لسوء عاقبة من يوالي الكافرين، وتحذير من العقاب الذي يأتي من قبله حصراً لأنه يكون أبلغ ألماً وأشد مضرّاً، لا العقاب الذي يجريه تعالى على أيدي الناس ويقع من جهة الجبابرة والظالمين. والله أعلم.

٦- قوله تعالى: (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران / ٩٧).
حل الشاهد هنا قوله تعالى: (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين).

ذكر المفسرون أن الآية تتحدث- كما هو الظاهر- عن تعظيم بيت الله تعالى وفضائل تفضيله على سواه فهو أول بيت وضع للعبادة، وأنه مبارك كثير النفع لمن حجه، وأن فيه مقام إبراهيم - في إشارة على تعظيمه على بيت المقدس الذي كان اليهود يتفاخرون به على المسلمين ويفضلونه على مكة - وأن من دخله كان آمناً على نحو الإنشاء لا الأخبار، لأن كثيراً ممن لجأ إلى الحرم قتلوا فيه وأُخيفوا مع المقام به، ولو كان ذلك خبراً لكان يجب أن يكون على ما أخبر به. وأن الحج فرض واجب على جميع المكلفين المستطيعين. ومن كفر ولم يحج فالله تعالى مستغن عنه وعن جميع العالمين^(٦٦). فترى أنهم لم يلتفتوا إلى تحويل الخطاب وسبب وجوده. فتأمل.

٦٣- (ظ) على سبيل المثال لا الحصر: تفسير السمرقندي: ١/ ٢٣١، التبيان، الطوسي: ٢/ ٤٣٤، جمع البيان، الطبرسي: ٢٧٤ / ١، الأمثل: ١/ ٢٣١، التبيان، الطوسي: تفسير أضواء البيان، الشنقيطي: ١/ ٤١٣.
٦٤- تفسير الألوسي: ٣/ ١٤١.
٦٥- التعليقية على رياض المسائل، عبد الحسين اللاري/ ٦٣.
٦٦- (ظ) من كتب التفسير: التبيان، الطوسي: ٢/ ٥٣٦، مجمع البيان، الطبرسي: ٢/ ٣٥٠، إحكام القرآن، الجصاص: ١/ ٨٨، زبدة التفاسير، الكاشاني: ١/ ٥٢٩، على سبيل المثال.

الفائدة: أن تحويل الخطاب في قوله تعالى: (ومن كفر فأن الله غني...) الذي جاء بعد أن بين سبحانه كرامات بيته وأن فيه آيات بينات، ضروري لربط الآيات السابقة لهذه الآية محل الشاهد مع الذي تبعتها فلو لم يكن هذا التحول في الخطاب ورفعنا قوله تعالى: (ومن كفر) لكان من المستهجن أن نقرأ الآيتين: (فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) ---- . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ، فلا تجد المناسبة بين الآيتين وهناك حلقة مفقودة لا تخفى على المطلع اللبيب فصار لابد من تحويل الخطاب إلى الكفار وهم أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بمكة قبلة للمسلمين ليصل معنى الآية محل الشاهد بالآية التي تبعتها. والله أعلم.

٧- قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران ١١٠).

محل الشاهد هنا قوله تعالى: (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم..). في هذه الآية هناك أمتان، أمة مدحها سبحانه بأنها خير الأمم وأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وأمة فاسقة والثانية واضحة من هي فقد صرح بذلك الخطاب القرآني وهم أهل الكتاب. وإما الثانية فقد اختلف في تحديدها (فقال قوم هم الذين هاجروا مع النبي ﷺ)، وقال عكرمة: (أنها نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل)^(٦٨)، وقال الضحاك: (هم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة)^(٦٩). وقيل: هم الأئمة المعصومون بقرائة (كنتم خير أمة)^(٧٠). وعلى أية حال فالذي يهمننا من هذا، هو تحول الخطاب من المدح في أول الآية إلى الذم في نهايتها. الفائدة:- أن الآية تصدرت بالمدح لكي تتصل الآية بما قبلها يقول الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ): (وجه اتصال الآية بما قبلها اتصال المدح على الفعل الذي تقدم به الأمر، لأنه قد تقدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم مدح على قبوله والتمسك به)^(٧١)، وأن ما بعد هذه الآية جاءت بالذم على أعداء الإسلام وأنهم لا يضرؤا المسلمين، وأنهم أن قاتلوا المسلمين يولون الأدبار.

وهنا صار لابد من تحويل الخطاب إلى المعني بالآية التي تلت هذه الآية- محل الشاهد- ليناسب الاتصال بها. وإلا فلو تركت من دون هذا التحول في الخطاب لصار سياق الآيات كالاتي: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.....- كن يضرؤكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يؤلوكم الأذبار ثم لا ينصرون) وهنا يكون الإبهام وارداً، فمن هؤلاء الذين لا يضرؤنا وأن

٦٧- التبيان، الطوسي: ٢ / ٥٥٨ .

٦٨- م. ن. و (ظ) مجمع البيان: ٢ / ٣٦٢، تفسير السمعاني: ١ / ٣٤٨ .

٦٩- مجمع البيان، الطبرسي: ٢ / ٣٦٢، و (ظ) مقتنيات الدرر، الحائري: ٢ / ٢٤٩ .

٧٠- تفسير القمي: ١ / ١٠ .

٧١- التبيان، الطوسي: ٢ / ٥٥٦ . و (ظ) زاد المسير، ابن الجوزي: ٥ / ١٤٨ .

قاتلونا يهرون؟! هل هم من مدحهم في صدر الآية أم ماذا؟ وهنا يتبين للمطلع اللبيب ضرورة التحول في الخطاب القرآني في هذه الآية لرفع التعارض وتوضيح المراد من ان المتوجه اليهم الخطاب هم اهل الكتاب.

٨- قوله تعالى: (وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء / ١٢٨).

ومحل الشاهد في الآية المباركة قوله تعالى: (وأحضرت الانفس الشح). يذكر صاحب كنز العرفان أمها: (جملة معترضة أيضاً ولذلك لم يجانس ما قبلها و الجملة الأولى مرغبة في الصلح والثانية لتمهيد العذر في المماكسة)^(٧٢).

قيل في سبب نزول هذه الآية: أن بنت محمد بن سلمه كانت عند رافع بن خديج، وكانت قد دخلت في السن، وكان متزوجاً بامرأة شابة فطلق زوجته الأولى تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسير قال: أن شئت راجعتك وصبرت على الأثرة^(٧٣)، وأن شئت تركتك؟ قالت: بل راجعني وأصبر على الأثرة. فراجعها. فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله تعالى أنزل في هذه الآية^(٧٤).

فالآية هنا وضحت حكم نشوز الرجل عن امراته، ورفع الجناح عنهما أن يصلحاً بينهما. وفائدة المفعول المطلق في الآية (يصلحاً صلحاً): هو أن يكون الأمر في ما بينهما، ولا يدخل من يصلح بينهما فالأمر شخصي للغاية لا يسمح بدخول شخص آخر. إذ المرأة تتنازل عن حقها الشخصي في الزواج وهو أن يضاجعها زوجها يوماً كل أربعة أيام. وأن يجامعها مرة كل أربعة أشهر. والرجل يوافق على ذلك بأن يجعلها على ذمته وينفق عليها ولو كان كارهاً لذلك.

وفي قوله تعالى: (وأحضرت الانفس الشح) - محل الشاهد - يقول الشريف الرضي: (ت ٤٠٦ هـ): (وهذه استعارة. وليس المراد أن محضراً أحضر الأنفس شخصها، ولكن الشح لما كان غير مفارق لها ولا متباعد عنها كان كأنه قد أحضرها وحمل على ملازمتها)^(٧٥). ولم تتعد كلمات المفسرين هذا المعنى وأن اختلفت الفاظهم^(٧٦).

الفائدة:- جاءت هذه الجملة الاعتراضية وتحول الخطاب إليها لتبين حالة الجبلة لدى الإنسان فطبع الإنسان: أن يحب ذاته ويستجلب الخير لنفسه، ومسألة ترك المرأة حقها أو الرجل في أنفاقه على من لا يجب أمر يعاكس الجبلة (فأن الشح حاضر في الأنفس حتى ساعة البذل، وأن اللوعة التي يحس بها الباذل

٧٢- كنز العرفان: المشهدي: ٢ / ٢١٧. والمكس: انتفاض الثمن في البيعة. والمحاكة في البيع: انتفاض الثمن واستحاطه. وهو هنا يعني: انتفاض حصة الزوجة. (ظ) لسان العرب: ٦ / ٢٢٠.
٧٣- والأثرة: التفضيل والإكرام. وهي تعني: تفضيل الزوجة الثانية على الأولى (ظ)، لسان العرب: ٤ / ٧.
٧٤- (ظ) مجمع البيان، الطبرسي: ٣ / ٢٥٥، أسباب النزول، الواحدي/ ١٢٣.
٧٥- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي / ١٢٨.
٧٦- (ظ) من كتب التفسير: التبيان، الطوسي: ٧ / ٨٣، مجمع البيان: ٣ / ٢٠٤، تفسير الثعلبي: ٣ / ٣٩٣، تفسير السمعاني: ١ / ٤٨٦، تفسير القرطبي: ٥ / ٤٠٣، مقتنيات الدرر الحائري: ٣ / ١٩٤، الميزان، الطباطبائي: ٥ / ١٠١. على سبيل المثال.

ويخفيها عندما يبذل هي الشح بالذات^(٧٧)، فالشح من الغرائز الإنسانية التي جبلها الله عليها لتحفظ به منافعها وتصونها عن الضياع.

ثم تستدرك الآية لغرض عدم استغلال هذا الأمر فوجهت الخطاب إلى فعل الخير والتزام التقوى، وأن الله تعالى يراقب أعمالهم دائماً فليحذروا الانحراف عن جادة الصواب. وتحويل الخطاب هنا جاء ليعتذر لكلا الزوجين أن الذي هم شاعرون به طبع إنسان وهم محبوبون عليه. ومع هذا فالاستدراك في ذيل الآية يجعل هذا الاعتذار مشروطاً بالإحسان والتقوى وأن لا يغفلوا مراقبة الله تعالى لهم.

ولو رفعنا الجملة الاعتراضية التي تحول فيها الخطاب لأصبح معنى الآية ناقصاً وموهماً ومشوشاً على المتلقي، ويكون سياقها كالاتي: (وأن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو أعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير.... - وأن تحسنوا وتتقوا فأن الله كان بما تعلمون خبيراً)، اذ يبدو من ظاهر الكلام أن الصلح في هذه المسألة خير من إعطاء الحقوق في الحياة الزوجية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فأن الآية تتحدث عن رفع الجناح أو الإثم في مسألة التنازل عن الحقوق. والجملة الشرطية في (وأن تحسنوا) تفيد أن فعلهم غير حسن وأنه معارض لمضمون الجملة الشرطية. ولازمة هذا، تحويل الخطاب إلى الجبلبة الإنسانية وأعدار الزوجين فيما فعلا من الصلح، وأن الإحسان في الجملة الشرطية هو في إصلاح الحالة الاجتماعية وإعطاء كل ذي حق حقه بتذكر التقوى. والله أعلم.

٩- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مَجْلِيِّ الصَّيِّدِ وَذَنَمٌ حَرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يُحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (المائدة ٧).

ومحل الشاهد في هذه الآية المباركة: (أوفوا بالعقود)، وهي تختلف عن سابقاتها في قضية التحول في الخطاب، أنها لا تؤثر في المعنى ان رفعناها فيمكن الابتداء بـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - - أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ...)، فلماذا جاءت في بداية السورة وليس لها تعلقاً بموضوع الآية وما فائدتها؟ هذا ما سأحاول بيانه بتوفيقه تعالى.

اختلف المفسرون في تأويل العقود التي أمر الله تعالى بالوفاء بها في هذه الآية. (فقال قوم: هي العهود التي أخذ الله عباده بالإيمان به وبطاعته فيما أحل لهم أو حرم عليهم، وقال قوم: بل هي العقود التي يتعاقدونها الناس فيما بينهم ويعقدها المرء على نفسه كعقد الإيمان وعقد النكاح... وعن ابن عباس أن معناه: أوفوا بعقود الله التي أوجبها عليكم وعقدها فيما أحل لكم وحرم وألزمكم فرضه وبين لكم حدوده)^(٧٨). (وعن قتادة في قوله تعالى: (أوفوا بالعقود) قال: بالعهود وهي عقود الجاهلية)^(٧٩) - وهو

٧٧- تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: ٤٥٣ / ٢ .

٧٨- تفسير السمرقندي: ٣٨٨ / ١، المنتخب في تفسير القرآن، ابن إدريس: ٣٣٥ / ١.

٧٩- تفسير السمعاني: ٦٥ / ٢ .

أمر غريب حقاً سيأتي بيانه - والأغرب منه قول النسفي (ت ٥٣٧هـ)، بعد أن بين أن المعنى هو العقود: (وأنة كلام قدم مجحلاً ثم عقب بالتفصيل وهو قوله: (أحلت لكم بهيمة الأنعام)^(٨٠).

وهنا أتساءل: أين العقود هنا ؟ والعقد فيه إيجاب وقبول، وإنما هي إحكام وأوامر ونواهي جاءت في هذه الآية. وعلى الرغم من ذلك فهم قد أكدوا على أن (أوفوا بالعقود) جملة غريبة عما بعدها فقالوا: (ثم ابتدأ سبحانه كلاماً آخر فقال: " أحلت لكم بهيمة الأنعام ")^(٨١). فكيف تكون العقود مجملة ثم فصلت فيما بعد؟ فتأمل !.

الفائدة: هذه الآية جاءت لتعطي فائدة عقائدية أكثر مما هي تفسيرية وبيان أحكام الآيات الواردة فيها، فهي تحاكي عقيدة المسلم في إيمانه بأصل من أصول الدين وهو الإمامة. فقد جاء عن أبي جعفر الثاني عليه السلام أنه قال: (أن رسول الله صلى الله عليه وآله عقد عليهم لعلي عليه السلام في عشرة مواطن ثم أنزل الله: " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ")^(٨٢) التي عقدت لأمر المؤمنين. وقال جمع من المفسرين: أن هذه السورة هي آخر ما نزل على صدر نبينا محمد صلى الله عليه وآله. فكان لا بد من التذكير بالعقود والعهود التي عقدوها على أنفسهم. فتحول الخطاب من الأصول إلى الفروع، وربما استفيد من هذا أن الوفاء بالعهود والعقود أهم من الأحكام التي سوف تتلى عليهم.

ويمكن الاستدلال على هذا بقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (المائدة / ١٢).

وحيث أن القرآن نزل بلغة (إياك أعني وأسمعي يا جارة)^(٨٣)، فهذا الخطاب يشمل المسلمين أيضاً في حفاظهم على العهد وأن الله تعالى أخذ العهد عليهم يوم غدير خم حين أمر نبيه بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة / ٦٧)، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله خطيباً يومها فقال: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)^(٨٤)، وهو ما صرحت به آية التصديق بالخاتم في قوله تعالى: " إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون " وتصريح الآية (أثنى عشر نقيباً) فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: (الأئمة من بعدي بعدد نقباء بني إسرائيل وكانوا اثني عشر، ثم وضع يده على صلب الحسين عليه السلام وقال: (تسعة من صلبه والتاسع مهديهم)^(٨٥).

٨٠- تفسير النسفي: ١ / ٢٦٦ (ظ) تفسير أبي السعود: ٣ / ٢، و(ظ) زبدة التفاسير، الكاشاني: ٢ / ٢٠٨.

٨١- مقتنيات الدرر، الحائري: ٣ / ٢٢٩.

٨٢- الحديث أخرجه القمي في تفسيره: ١ / ١٦٠، عن الحسين بن محمد عن عامر العلي عن محمد البصري عن أبي عمير عن أبي جعفر الثاني (الحديث).

٨٣- عوالي اللباني، ابن أبي الجهور: ٤ / ١١٥.

٨٤- الكافي، الكليني: ١ / ٢٨٧.

٨٥- الحديث أخرجه ابن شهر آشوب في مناقبه: ١ / ٢٥٤، عن سلمان المحمدي (رض).

فتجد أن الآيات كانت واضحة في إثبات حق أمير المؤمنين في الخلافة بتوجيه طاعته لا أن كل مؤمن يطاع؛ لأن من المؤمنين من يرتكب المحارم خلصة ومنهم من شرب الخمر خفية ثم تاب من بعد ذلك، فهل يأمر الله تعالى بطاعة هؤلاء: (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة / ١٢٤)، وذكرت الآية الثانية أن نقيب بني إسرائيل أننا عشر وجاءت السنة لتبين أن الأئمة من بعد النبي ﷺ بعدهم.

فالواضح أن هذا الأمر مهم جداً ولذا جاء التأكيد عليه في بداية آخر سورة نزلت على نبينا ﷺ. وأما تحول الخطاب فمن الأصول إلى الفروع. والله أعلم.

ومسألة اشتغال سورة النساء على أكثر من العقود صريحاً وضمناً فناسب أن تعقب سورة النساء بسورة مفتحة بالأمر بالوفاء بالعقود^(٨٦). مردود: لأنه لم يبين سبب تحول الخطاب إلى إحلال بجمعة الأنعام وليس فيها ما يشير إلى العقود والمأمور بالوفاء بها. نعم يصح هذا الكلام لو كانت الآية مستقلة بذاتها لا أنها مضافة إلى كلام آخر (أحلت لكم بجمعة الإنعام). والله أعلم.

١٠- قوله تعالى: (قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُم إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (الأنعام / ١٢).

ومحل الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ذكر المفسرون أن الله أمر نبيه أن يحاجج الكفار بقوله لمن ما في السموات والأرض قل لله الذي كتب على نفسه الرحمة وأنه جامع الناس في يوم القيامة وهو من مظاهر عدالته ورحمته إذ يجازي كل مكلف بعمله. وأنه أوجب على نفسه الانعام على خلقه. وجملة (الذين خسروا أنفسهم) لا اختيارهم الكفر فهم لا يصدقون بالحق فأهلكوها بارتكاب الكفر والعناد.

ولم يلتفتوا إلى التحول في الخطاب في هذه الجملة إلا على نحو الإشارة في جعل الجملة في موضوع الابتداء على رأي الزجاج الذي قال: (ان قوله: الذين خسروا أنفسهم) رفع بالابتداء وقوله (فهم) لا يؤمنون خبره^(٨٧).

الفائدة: أن الآية أثبتت الرحمة لله تعالى وأثبتت المعاد الذي يكفر به الكافرون والمعاندون، وأن الله جامع الناس في يوم القيامة ولا ريب في ذلك. ولو وقف الخطاب القرآني على (لا ريب فيه) لكان موهاً أن في يوم القيامة لا توجد سوى الرحمة ولا فرق بين الكافر والمؤمن فكلاهما ستناله رحمه الله يوم ذاك، وحين جاء بقوله: (الذين خسروا) تحول الخطاب من الرحمة العامة إلى الاستثناء من تلك الرحمة وهم (الذين خسروا أنفسهم) بارتكاب المعاصي، ثم أن هذا التحول في الخطاب جاء ليفصل بين هذه الآية محل الشاهد والآية التي تبتغيها رفعاً للتوهم الذي قد يحصل إذا لم يكن هذا التحول، ولنقرأ لإيتين من

٨٦- (ظ)، تفسير الآلوسي: ٤٨ / ٦.

٨٧- التبيان، الطوسي: ٨٦ / ٤، و (ظ) من كتب التفسير: مجمع البيان، الطبرسي: ١٦ / ٤، تفسير ابن زنين: ٦١ / ٤، تفسير التعلبي: ١٢٢ / ٤، تفسير السمعاني: ١٩ / ٢، تفسير النجاشي: ٣١٥ / ١، مقتنيات الدرر، الحائري: ١٤١ / ٤، تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: ١٦٥ / ٣، الميزان، الطباطبائي: ٢٥ / ٧، على سبيل المثال لا الحصر.

دون التحول في الخطاب: (قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ---- وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). فتلاحظ أن الآية مطمئنة للكافر أنه سيساوي المؤمن في الثواب فحسب ولا مكان للعقاب هناك وهو مناف للعدل الإلهي، فكان لابد من تحويل الخطاب لإثبات المعنى المراد. والله أعلم.

١١- قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَلْفَاظُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (الأنعام ٢٠).

محل الشاهد: (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون)
قال المفسرون في تفسير هذه الآية: (لابد أن تكون مخصوصة بجماعة من أهل الكتاب وهم الذين عرفوا التوراة والإنجيل فعرفوا صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله بما كانوا عرفوه من صفاته المذكورة ودلائله الموجودة في هذين الكتابين كما عرفوا آبائهم^(٨٨)، وأن جملة (الذين كفروا) مرفوعة على الابتداء لأنها معترضة وهي غريبة عما قبلها^(٨٩)، ولم يتطرقوا أيضاً إلى سبب هذا التحول في الخطاب كعادتهم.
والفائدة: أن هذه الآية جاءت لتبين وضوح نبوة محمد صلى الله عليه وآله، وأنها أكثر تأكيداً من معرفة الإنسان بابنه، فإن الآباء لا يعلمون ما أحدثت زواجهم وأهل الكتاب يعرفون أحقية نبوة النبي صلى الله عليه وآله لأن الله تعالى أنزل في كتبهم صفاته وأوصافه ومبعثه ومهاجرته وصفة أصحابه.
ولو سكت الخطاب القرآني على قوله تعالى: (أبناءهم) لكان في هذا السكوت مدحاً لأهل الكتاب، فهم وحدهم الذين يعرفون النبي صلى الله عليه وآله أكثر مما يعرفون أبناءهم، وتعد هذه منقبة لهم. ولكن حين تحول الخطاب إلى الخسران تبين أن هذه المعرفة لشخص النبي صلى الله عليه وآله ونبوته لم تنفعهم، إذ خسروا أنفسهم بإنكارهم لنبوته. والله أعلم.

١٢- قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام ٩٠).

محل الشاهد قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجراً أن هو إلا ذكرى للعالمين)، ذكر المفسرون أن الضمير (أولئك) يعني بهم الأنبياء الذين سبقوا النبي محمد صلى الله عليه وآله، وأن الله تعالى هداهم إلى الصبر، فأجر يا محمد وأقتدي بهم في الصبر على أذى قومك، وقيل: الأمر بالاعتداء في استدلالهم على التوحيد والاحتجاج به على الكفار، وأنه لا يريد من المشركين أجراً على هذه الرسالة وعلى القرآن الكريم، فإنما هو موعظة للعالمين^(٩٠). وسكتوا عن التحول في الخطاب في ذيل الآية.

٨٨- التبيان، الطوسي: ٩٥ / ٤.
٨٩- (ظ) من كتب التفسير: مجمع البيان، الطبرسي: ١ / ٤٢٦، مقتنيات الدرر، الحائري: ٤ / ١٤٤، الميزان، الطباطبائي: ٧ / ٢٧، الأمل، الشيرازي: ٤ / ٢٢٦. على سبيل المثال.
٩٠- (ظ) من كتب التفسير: أحكام القرآن، الجصاص: ٣ / ٥، تفسير السمرقندي: ١ / ٤٨٥، التبيان، الطوسي: ٤ / ١٨٩، الميزان، الطباطبائي: ٤ / ٣٧٤. على سبيل المثال.

الفائدة:- أن الآيات السابقة لهذه الآية كانت تتحدث عن الأنبياء الذين سبقوا نبينا الأكرم في رفع درجاتهم وأنهم من الصالحين وأنهم مفضلون على العالمين, وأمر نبينا بالاعتداء بهم. وجاءت الآية التي تلت الآية - محل الشاهد- في قوله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) (الأنعام / ٩١).

ولو سكنت الخطاب القرآني عند قوله: (فبهدهم اقتده), لتعارض مفهوم سياق الآيات السالفة مع الآية (٩١) من سورة الأنعام, وإلا فالتوهم والتشويش يكون نصيب كثيراً من المتلقين حين نقرأ الآيات من دون التحول في الخطاب الأنف ذكره وكالآتي: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِءْ-.....- وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...), فهنا يكون التساؤل من هؤلاء الذين ما قدروا الله حق قدره؟ أهم الأنبياء الذين مدحهم الله تعالى وأمر خاتمهم ﷺ بالاعتداء بهم؟ والسياق يعين على هذا المعنى. أم هم الكفار ولا قرينة مقالیه أو حالية تدل على ذلك؟

وهنا صار من الضروري أن يتحول الخطاب من مدح الأنبياء (صلوات الله عليهم) إلى قوم النبي ﷺ ليكونوا هم المعنيون بقوله: (قل لا أسألكم عليه أجراً), وهم الذين ما قدروا الله حق قدره فيرفع الاشتباه ويناسب سياق الآية في موضوع موحد. والله أعلم.

الخاتمة وأهم النتائج

ها انذا اصل الى نهاية هذه الرحلة الشيقة في بستان المعرفة, لأقطف ثمارها واحدد انواعها واتذوق طعمها الذي رزقنيه ربي عز وجل, في نتائج اجدها مهمة من وجهة نظري القاصر, ولا ادعي لهذا الجهد المتواضع صفة الكمال او الترفع عن نقده وانتقاده من العلماء والباحثين, ان يتفضلوا علي بتقويمه وتوجيهه خدمة للعلم والمعرفة.

وهذه أهم النتائج:

١. ان حسن الكلام عند العرب الفصحاء, انما يكون بالتناسب بين اجزائه والارتباط بين مقاطعه, وقد مثل كلام القرآن اعجازا بلاغيا رائعا, فقد جاء في بناء محكم السرد متماسك السبك متين الاسلوب متصل بعضه ببعض.
٢. ان الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ بل الفضيلة في بلاغة معنى اللفظة واتصالها بمعنى التي تليها, والقرآن العظيم جاء بكلتا الفضيلتين: جزالة اللفظ ورسانة المعنى وترابطه, فلا توجد في آيات القرآن معان غير مترابطة مما قد تبدو للوهلة الاولى توها.
٣. ان معنى النظرية هو التعبير عن وجهة نظر ما, او اعطاء حكم في قضية معينة على وفق اسس علمية بعيدا عن الاهواء والآراء الشخصية, وهو ما حرصنا عليه في هذه الدراسة.
٤. ان معنى التحول في اللغة وفي الاصطلاح واحد فكلاهما يعني: الانتقال من حالة الى حالة سواء كان في الصفة او في الالفاظ و المعاني.
٥. ان التحول يبين التبدل في انه لا يستعمل في تبديل ذات بذات اخرى, بل يستعمل في تحويل الصفة الى صفة اخرى او تحويل المعنى الى معنى اخر.

٦. ان التحول يبين اسلوب الالتفات عند اللغويين, ذلك لان الاخير يدرس تبديل الحروف والكلمات والضمائر من جهة المعنى اللغوي فحسب, ولا علاقة له بالمدلول السياقي للآية, وهو انما يبنى على الشك او الظن او توقع السؤال. في حين ان نظرية التحول ترصد تحول الخطاب القرآني من موضوع الى اخر مع ابقاء صفة الترابط وبيان اسبابه وتأثير ذلك في المعنى المراد بملاحظة السياق والتناسب بين الآيات القرآنية.

٧. ان نظرية التحول في الخطاب القرآني جاءت لإثبات الوحدة الموضوعية بين كلمات القرآن الكريم في آياته المباركة. فالله سبحانه هو سيد العقلاء ولا بد من ان يكون خطابه للمكلفين على نحو الافهام لهم, ومسألة تحول الخطاب ضمن نظرية التحول لا بد وان تكون لغاية مهمة يجب على المتخصصين اظهارها. وهنا اسجل استغرابي من عدم التفات المفسرين الى هذا التحول في الخطاب وعدم تبينهم لآثره في تفسير النص القرآني والوصول الى المعنى المراد.

٨. ان نظرية التحول اعطت فوائد تفسيرية مهمة يمكن حصرها بما يأتي:

- أ- دفع التوهم في امكانية الحذر من الموت المحتوم.
- ب- توضيح وتثبيت الموقف الالهي من اليهود ودحر مقولتهم بانهم شعب الله المختار.
- ت- اثبات الاتصال بين الآيات القرآنية على وفق السياق القرآني, وتحديد المقصود بالمدح او بالذم في الخطاب القرآني.
- ث- بيان معنى المعنى من خلال قراءة ما وراء الالفاظ وتحديد الحكم الشرعي الخاص بالموضوع.
- ج- مراعاة تناسق الكلمات وترابط الآيات وتماسك معانيها واثبات ذلك من خلال فرض (ماذا لو رفعنا التحول في الخطاب).

- ح- محاكاة جبلة الانسان وعدم اغفالها والاعتذار بها في توضيح المعنى المراد.
- خ- التأكيد على عقيدة المسلم وضرورة ايمانه بالاصول قبل الفروع ووجوب الوفاء بعهد الله وموآثيقه فهي اهم من الفروع وعليها يتوقف صحة عمل المكلف.
- د- اثبات مبدا العدل الالهي من خلال اثبات المعاد في يوم القيامة وعم تساوي الكافر مع المؤمن في الجزاء.

ذ- ابانت هذه النظرية ان معرفة النبي وحده لا تكفي ولا تنجي من الهلكة, بل لا بد من الايمان بنبوته واتباع اوامره واجتناب ما نهى عنه.

واخيرا فاني احمد الله على توفيقه الذي غمرني به ولم يزل حتى اكملت هذه النظرية التي ابتدأت كفكرة منذ سنتين محاولا اخراجها للوجود لعلها تنال رضا اهل العلم الاجلاء, داعيا منه تعالى ان تكون في ميزان حسناتي القليلة النادرة وان يغفر لي ذنوبي التي اثقلت ظهري وما زالت وان يوفقي لتأليف كتاب في هذا الموضوع.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ١- الاتقان في علوم القرآن: السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة هئية العامة المصرية للكتاب - ١٣٥٤هـ / ١٩٧٥م.
- ٢- الاحكام في اصول الاحكام: الامدي علي بن محمد (ت: ٦٣١هـ)، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، ط ٢ مطبعة مؤسسة النور، المكتب الاسلامي، دمشق- ١٤٠٢هـ.
- ٣- احكام القرآن: ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله القاضي (ت: ٥٤٣هـ) تحقيق: علي محمد البيجاوي، دار الفكر، مصر- ١٩٢٩م.
- ٤- احكام القرآن: الجصاص أبو بكر أحمد بن علي الرازي (ت: ٣٧٠هـ)، ضبط وتخرىج: عبد السلام محمد علي شاهين، ط ١. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- ٥- اسباب النزول: الواحدي علي بن أحمد النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ)، دار أحمد الباز، مكة المكرمة - ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ٦- اضواء البيان في تفسير القرآن: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار (ت: ١٢٩٣هـ) تحقيق مركز البحوث والدراسات، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت / ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- ٧- الامثل في تفسير كتاب الله المنزل: الشيرازي ناصر مكارم، ط ١، لا.ت.
- ٨- املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات: العكبري أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت: ٦١٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م.
- ٩- بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار: المجلسي محمد باقر (ت: ١١١١هـ)، ط ٢، مطبعة ونشر دار الوفاء بيروت - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ١٠- البرهان في علوم القرآن: الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، مطبعة ونشر دار احياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٧٦هـ.
- ١١- البليغ في المعاني والبيان والبديع: الشيرازي أحمد أمين، ط ١، مطبعة مؤسسة النشر الاسلامي، نشر: اتشارات فروع قرآن - ١٤٢٢هـ.
- ١٢- البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الاسلامي: البستاني، الدكتور محمود، ط ١، دار الفقه للطباعة، قم / ١٣٨٢هـ.
- ١٣- البيان في تفسير القرآن: الخوئي أبو القاسم علي أكبر (ت: ١٤١٣هـ)، ط ٣٠، مؤسسة احياء تراث الامام الخوئي، ايران / قم - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- ١٤- البيان والتبيين: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ)، ط ١، نشر: المطبعة التجارية - ١٩٢٦م.
- ١٥- تاريخ القرآن: الزنجاني عبد الكريم، ط ١، منظمة الاعلام الاسلامي، طهران. ايران. لا.ت.

- ١٧- التبيان في تفسير القرآن: الطوسي ابو جعفر محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ), تحقيق: احمد حبيب قصير, ط ١, مطبعة ونشر مكتبة للاعلام الاسلامي, دار احياء التراث العربي - بيروت, لا, ت.
- ١٨- التدبر الموضوعي في القرآن الكريم قراءة في المنهجين التجميعي والكشفي: علي آل موسى, ط ١, دار كميل للطباعة والنشر, بيروت. لبنان/ ٢٠٠٩م.
- ١٩- التعليقة على رياض المسائل: اللاري آية الله السيد عبد الحسين (ت ١٢٦٤هـ), نشر مؤسسة المعارف الاسلامية, مطبعة باسدار اسلام - قم/ ١٤١٨هـ.
- ٢٠- تفسير الاصفى في تفسير القرآن: الفيض الكاشاني محمد محسن (ت: ١٠٩١هـ), تقديم وتصحيح: مهدي الانصاري, ط ٢, مطبعة سرور, دار نشر اللوح المحفوظ, طهران- ١٤٢٣هـ.
- ٢١- تفسير ابي السعود المسمى ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم: اب السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ), ط ١, نشر دار احياء التراث العربي, بيروت, لا, ت.
- ٢٢- تفسير روح المعاني: الآلوسي ابو الثناء شهاب الدين بن محمود (ت: ١٢٧٠هـ), المطبعة الميمنية, مصر - ١٣٢٣هـ.
- ٢٣- تفسير البحر المحيط: ابو حيان, اثير الدين, محمد بن يوسف (ت ٧٥٤هـ) مطبعة السعادة, القاهرة/ ١٣٨٢هـ.
- ٢٤- تفسير البيضاوي (انوار التنزيل واسرار التاويل): البيضاوي ناصر الدين ابي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشافعي (ت ٦٩١هـ), تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي, ط ١, دار احياء التراث العربي, بيروت - لبنان/ ١٩٩٨م.
- ٢٥- تفسير الكشف والبيان المسمى بـ (تفسير الثعلبي): الثعلبي ابو اسحاق احمد (ت: ٤٢٧هـ), تحقيق: ابو محمد بن عاشور, طبع ونشر دار احياء التراث العربي - ٢٠٠٢م.
- ٢٦- تفسير السمرقندي: السمرقندي ابو الليث نصر بن محمد بن ابراهيم (ت ٣٨٣هـ), تحقيق: د. محمود مطرجي, ط ١, دار الفكر, بيروت, لا, ت.
- ٢٧- تفسير السمعاني: السمعاني, ابو المظفر منصور بن محمد المروزي الشافعي (ت ٥٦٢هـ) ط ١, نشر دار احياء التراث العربي, بيروت, لا, ت.
- ٢٨- التفسير الكاشف: محمد جواد مغنية (١٤٠٠هـ), ط ٣, دار العلم للملايين, بيروت - لبنان/ ١٩٨١م.
- ٢٩- تفسير العياشي: العياشي ابو النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي (ت: ٣٢٠هـ), تحقيق: هاشم الرسولي المحلاقي, ط ١, مطبعة ونشر المكتبة العلمية الاسلامية, طهران, لا, ت.
- ٣٠- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ابو الفداء اسماعيل الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ), تقديم د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي, ط ١, مطبعة ونشر دار المعرفة, بيروت - ١٤١٢هـ.
- ٣١- تفسير القمي: القمي ابو الحسن علي بن ابراهيم (ت: ٣٢٩هـ), تصحيح: طيب الجزائري, ط ٣, مطبعة ونشر مؤسسة دار الكتاب, قم- ١٤٠٤هـ.

- ٣٢- تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): النسفي ابو البركات عبد الله بن احمد بن محمود (ت ٥٣٧هـ). مطبعة السعادة، القاهرة / ١٣٨٢هـ.
- ٣٣- تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي (٤٠٦هـ)، تحقيق: عبد الغني حسن، ط ١، دار احياء الكتب العربية، نشر عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة/ ١٩٥٥م.
- ٣٤- الجامع لاحكام القرآن: القرطبي ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري (ت: ٦٧١هـ)، ط ٢، مطبعة ونشر دار احياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- ٣٥- جوامع الجامع: الطبرسي ابو علي الفضل بن الحسن (ت: ٥٦٠هـ)، ط ١، مؤسسة النشر الاسلامي / قم - ١٤١٨هـ.
- ٣٦- خزانة الادب: الحموي تقي الدين ابي بكر علي بن عبد الله (ت: ٨٣٧هـ)، تحقيق: عصام شعيتو، ط ١، دالر ومكتبة اهلل، بيروت- ١٩٧٨م.
- ٣٧- الدر المنثور: السيوطي جلال الدين (ت: ٩١١هـ)، ط ١. مطبعة الفتح، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - ١٣٦٥هـ.
- ٣٨- دلائل الاعجاز: الجرجاني عبد القاهر (ت ٤٧١هـ)، تصحيح: محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، تعليق: محمد رشيد رضا، ط ٣، دار المعرفة، بيروت - لبنان/ ٢٠٠١م
- ٣٩- دلائل النظام: الهندي عبد الحميد الفراهي (١٣٤٩هـ)، جمع وترتيب: بدر الدين الاصلاح، ط ١، المطبعة الحميدية، الهند/ ١٣٨٨هـ.
- ٤٠- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن محمد، ط ١، مطبعة ونشر دار الفكر، بيروت - ١٤٠٧هـ.
- ٤١- الزاهر في معاني كلمات الناس: ابن الانباري ابو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار (٣٢٨هـ)، تعليق: د. يحيى مراد، ط ١، نشر محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/ ١٤٢٤هـ.
- ٤٢- زبدة التفاسير: الكاشاني فتح الله بن شكر الله الشريف (ت ٩٨٨هـ)، تحقيق: مؤسسة المعارف الاسلامية، ط ١، مطبعة: عترة، نشر مؤسسة المعارف الاسلامية، قم/ ١٤٢٣هـ.
- ٤٣- عوالي اللئالي العزیزة في الاحاديث الدينية: الاحسائي ابن ابي الجمهور (ت: ٨٨٠هـ)، تحقيق: السيد المرعشي، ومجتبى العراقي، ط ١، مطبعة سيد الشهداء، قم - ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ٤٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الشوكاني محمد بن علي بن محمد (ت: ١٢٥٠هـ)، مطبعة ونشر عالم الكتب، لا، ت.
- ٤٥- فقه القرآن: الراوندي قطب الدين سعيد بن هبة الله (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق احمد الحسيني، ومحمود المرعشي، ط ٢، مطبعة اولاية، قم- ١٤٠٥هـ.
- ٤٦- فقه اللغة: المبارك عبد الحسين، مطبعة جامعة البصرة، لا، ت.

- ٤٧- قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة: المبيدي، محمد فاكراً، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١، طهران/٢٠٠٧م.
- ٤٨- الكافي: الكليني أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت: ٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر غفاري، ط٤، مطبعة الحيدري، دار الكتب الإسلامية، قم-١٣٦٥هـ.
- ٤٩- كنز الدقائق وبحر الغرائب: المشهدي محمد بن محمد بن رضا القمي (ت: ١٢٥هـ) تحقيق: حسن دركاهي، ط١، مؤسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي/١٤٠٧هـ.
- ٥٠- كنز العرفان في فقه القرآن: الحلبي المقداد السيوري (ت: ٨٢٦هـ)، مطبعة القضاء، النجف، لا، ت.
- ٥١- لسان العرب: ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت: ٧١١هـ)، ط١، مطبعة دار احياء التراث العربي، الناشر أدب الحوزة - ١٤٠٥هـ.
- ٥٢- المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم: أ. أول المتمرس الصغير محمد حسين، ط٢، مكتب الاعلام الاسلامي - ١٤١٣هـ.
- ٥٣- مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن (ت: ٥٤٨هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء زاحقين، ط١، تقلب محسن الامين، مؤسسة الاعلمي، بيروت - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- ٥٤- مختار الصحاح: الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت: ٧٢١هـ)، تحقيق: احمد شمس الدين، ط١، مطبعة ونشر دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- ٥٥- مسند احمد بن حنبل مسند احمد: احمد بن حنبل (ت ٢٣٨ هـ)، مصر، المطبعة الميمنية - ١٣١٣هـ
- ٥٦- المستصفى من علم الاصول: الغزالي أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ)، ط١، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة - ١٩٣٧م.
- ٥٧- المدخل الى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ط١/١٩٨٦م.
- ٥٨- المدخل الى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت. لا، ت.
- ٥٩- معارج الاصول: المحقق الحلبي أبو القسم جعفر بن الحسن الهذلي (ت: ٦٧٦هـ)، ط١، نشر مؤسسة البيت، مطبعة سيد الشهداء، قم - ١٤٠٣هـ.
- ٦٠- معجم اصطلاحات المنطق: الحسيني محمد باقر، ط١، مطبعة البقيع، دار الاعتصام، لا، ت.
- ٦١- معجم المصطلحات والالفاظ الفقهية: د. محمود بن عبد الرحمن بن عبد المنعم، ط١، جامعة القاهرة، دار الفضيلة. لا، ت.
- ٦٢- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط١، مكتب الاعلام الاسلامي/١٤٠٤هـ.

- ٦٣ - مقتنيات الدرر وملقطات الثمر: الحائري علي بن الحسين بن يونس (ت: ١٣٥٣هـ), ط ١, مطبعة الحيدري, دار الكتب الاسلامية, طهران - ١٣٧٩هـ.
- ٦٤ - مناقب ال ابي طالب: ابن شهر اشوب مشيرالدين ابي عبد اله محمد بن علي (ت: ٥٨٨هـ), تصحيح وشرح: لجنة من اساتذة النجف, ط ١, مطبعة محمد كاظم الحيدري, النجف الاشرف - ١٢٧٦هـ.
- ٦٥ - المنتخب من تفسيرالقرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان: الحلبي ابو عبد الله محمد بن احمد بن ادريس (٥٩٨هـ) تحقيق: مهدي رجائي, ط ١, مطبعة سيد الشهداء مكتبة اية الله المرعشي/ ١٤٠٩هـ.
- ٦٦ - الموافقات: الشاطبي ابراهيم بن موسى الغرناطي (ت: ٧٩٠هـ), ط ٢, ضبطه: محمد عبد الله دراز, مطبعة جاز المعرفة للطباعة والنشر, بيروت - ١٣٥٩هـ / ١٩٧٥م.
- ٦٧ - النبا العظيم, مدخل الى القرآن العظيم: محمد عبد الله دراز, دار القلم, الكويت, لا.ت.
- ٦٨ - نظريات تشكل الخطاب: المصطفوي السيد محمد, نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي, ط ٢, بئر حسن - بيروت / ٢٠١٠م.
- ٦٩ - النكت في اعجاز القرآن: الرماني ابو الحسن علي بن عيسى (٣٨٦هـ) تحقيق: محمد خلف الله احمد و د. محمد زغلول, ط ٥, دار المعارف, القاهرة, / ٢٠٠٨م.
- ٧٠ - نهاية الارب في فنون الادب: النويري شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ), ط ١, نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي, مصر لا.ت.
- ٧١ - النهاية في غريب الحديث: ابن الاثير المبارك بن محمد الاحزري (ت ٦٠٦هـ), تحقيق: طاهر احمد الراوي, ومحمود محمد الطناحي, ط ٤, مؤسسة اسماعيليان, قم - ١٤٠٦هـ.
- ٧٢ - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي, - مصر - ١٣٩٠هـ.